تقويم الإنسان في
مقالات الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي

د. صالح الدين ملفوف

جامعة الجيلالي بونعامة– خميس مليانة

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية الموسومة بعنوان: تقويم الإنسان في مقالات الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، إلى إماطة اللثام عن تلك الكتابات المقالية التي هدف الشيخ بها في المقام الأول، إلى رسم شخصية الإنسان الجزائري السوي في تعامله مع ذاته وغيره، في أخلاقه، وفي دينه، وفي علمه، وفي تربيته... وفي غيرها من مناحي الحياة الأخرى، وهي في مقام آخر مقارعة للمستدمر الفرنسي، وسياساته الرامية إلى طمس معالم الإنسان الجزائري.

الكلمات المفتاحية: فن المقال، تقويم الإنسان، محاربة الأعداء.

Le résumé:

Le but de cette recherche intitulée: L'évaluation humaine dans les articles du cheikh Mohammed Al - Bachir Al - Ibrahimi, à élever le voile sur les articles de ce dernier qui avaient pour objectif de dresser le portrait du caractère de l'homme algérien équilibré avec lui-même et les autres, dans son éthique, dans sa religion, dans ses connaissances et dans son éducation, ainsi que dans les autres éléments de la vie, et d'un autre coté, elle constitue une bataille contre le destructeur français et sa politique d'effacement de l'identité algérienne.

Mots clés: L'art de l'article, Evaluation humaine, Combattre les ennemis.

يلوح اسم الشيخ **مُحَمَّد البشير الإبراهيمي** في الأفق الأدبي والفكري كأحد أهم الأعلام البارزين الذين ساهموا في نهضة الجزائر، لاسيما في العقود الثلاثة الأولى من القرن المنصرم، في وقت كانت البلاد فيه ترزح تحت وطأة الاحتلال الفرنسي الغاشم. والشيخ –إلى جانب رفيق دربه العلامة **عبد الحميد بن باديس**– يمثِّل أحد أهم أعلام الفن المقالي بالجزائر، من خلال إنتاجه الثري شكلا ومضمونا.

وفاء للشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي:

وُلِدَ الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي بقرية (رأس الوادي) بناحية مدينة سطيف في 14 جويلية 1889م، حفظ القرآن على يد عمه الشيخ **المكي الإبراهيمي**. هاجر والده الشيخ **السعدي الإبراهيمي** إلى المدينة المنورة سنة 1908م، هروبا من ويلات الاحتلال الفرنسي الغاشم، ولحق به ابنه مُحَمَّد البشير سنة 1911م، بعد أن أقام ب ثلاثة أشهر، احتك خلالها بعلمائها وأدبائها وشعرائها، وحضر دروس العلم بحلقات جامعها الأزهر.

درس الشيخ عند وصوله إلى المدينة المنورة العلوم السائدة آنذاك على يد كبار علماء الأمة الوافدين إليها من كل حدب وصوب، ومن جملة العلوم التي حَصَّلَهَا الشيخ نذكر: التفسير، والفقه، والحديث، والتراجم، وأنساب العرب وأدبهم ودواوينهم، وعلم المنطق، والحكمة المشرقية، وكان يقضي وقته في إعطاء دروس للطلبة في الحرم النبوي الشريف، والتردد على المكتبات العامة والخاصة بحثا عن المخطوطات قصد تحقيقها ودراستها.

في موسم الحج من سنة 1913م التقى بالإمام عبد الحميد بن باديس بالمدينة المنورة، فتوطدت أواصر العلاقة والمحبة بينهما. وفي سنة 1917م، انتقل الشيخ الإبراهيمي إلى دمشق، حيث دعته حكومتها إلى تدريس الآداب العربية بالمدرسة السلطانية (مكتب عنبر)، بالإضافة إلى إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد في الجامع الأموي، حيث تخرَّج على يديه جيل من المثقفين، كان لهم الباع الطويل في النهضة العربية الحديثة.

في سنة 1920م عاد الشيخ إلى أرض الوطن، وفي خَلَدِهِ مشروع إحياء الإسلام والعربية بالجزائر، لنشر العلم وبعث الأمة من سباتها العميق، فوجد الشيخ عبد الحميد بن باديس قد خطا خطوات جبارة في هذا المشروع بقيادته لحركة ثقافية وصحفية بمدينة قسنطينة، فآثر الشيخ أن يقيم بسطيف وينشئ بها مدرسة ومسجدا، وخلال هذه الفترة كان يتردد على تونس، حيث كان يقيم أصهاره، وحيث كانت له صداقات في الأوساط العلمية والأدبية.

في سنة 1931م أسس الشيخ ابن باديس بمعية رفقاء دربه –وعلى رأسهم الشيخ الإبراهيمي– جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كرد فعل قوي وعكسي على احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلال الجزائر، فجاء شعار الجمعية: (الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا) قويا وصارخا في وجه فرنسا، وراسما الخلاص منها، وكرد فعل على هذا الصنيع، قامت فرنسا بنفي الإبراهيمي إلى أفلو في بداية الحرب العالمية الثانية، وبعد مضي أسبوع بلغه نبأ وفاة صديقه ابن باديس، فانتخبه أعضاء الجمعية رئيسا عليهم، فتحمَّل هذه المسؤولية الكبيرة غيابيا عن طريق المراسلة، طيلة الثلاث سنوات التي قضاها في المنفى، وعند عودته طفق يجوب ربوع الوطن معلما، ومرشدا، ومؤسسا للمدارس والمساجد والنوادي.

في سنة 1945م اعتقلته السلطات الفرنسية وزجت به في السجن بعد أحداث 8 ماي 1945م لمدة عام كامل، استأنف بعده مباشرة نشاطه المعهود، فأسس جريدة (البصائر) من جديد في السنة الموالية وأشرف بنفسه على تحريرها بعد أن توقفت أثناء الحرب، كما أسس معهدا ثانويا أطلق عليه اسم رفيقه وصديقه (معهد عبد الحميد بن باديس) بقسنطينة.

في سنة 1952م سافر الشيخ ثانية إلى المشرق العربي، ممثِّلا للجمعية لدى الحكومات العربية، لقبول بعثات طلابية جزائرية في معاهدها وجامعاتها، متخذا البلاد المصرية منطلقا لنشاطاته العلمية والثقافية والسياسية. وفي 15 نوفمبر 1954م وجَّه نداء إلى الشعب الجزائري يدعوه فيه إلى الالتفاف حول الثورة الجزائرية المسلحة، وخوض معركة الجهاد حتى تحقيق النصر أو نيل الشهادة. وفي 19 ماي 1965م، توفي الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي عن عمر يناهز 76 سنة حافلة بالجد والاجتهاد، وبالجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق، والدين الحنيف، ونشر اللغة العربية، تاركا وراءه فراغا صَعُبَ سَدُّهُ ولو بعد حين1.

اتجاهات المقالة عند الشيخ الإبراهيمي:

يُعَدُّ الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي من أهم أعلام فن المقال في الجزائر، وخير ما يُستدل به على ذلك آثار الشيخ القَيِّمَةِ التي بدأت تظهر منذ السبعينات في أربعة أجزاء، على يد نجله **أحمد طالب الإبراهيمي** بمعية الأستاذين **حمزة بوكوشة** و**مُحَمَّد خمار**، بالإضافة إلى الجزء الذي طُبِعَ في حياته تحت عنوان «عيون البصائر» سنة 1963م في مصر، لِتَصْدُرَ هذه الآثار في أحدث طبعة وأبهى حلة عن دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1997م، مع العلم أن قسما كبيرا من كتابات هذا الفارس في البيان، وهذا الفلتة* من فلتات الزمان قد ضاع لسببين اثنين، أولهما: عدم تدوينه، وثانيهما: إلقاء الشيخ لكلامه بطريقة ارتجالية تنم عن مدى امتلاكه لناصية اللغة العربية، وقد اعترف له القاصي والداني بالريادة وقصب السبق في الميدان، حتى تبوأ بكل جدارة واقتدار منازل العظام في مجامع اللغة العربية بمصر والشام، فقال عنه الأستاذ **منصور فهمي** مثلا بعدما استمع إلى إحدى محاضراته: «أنت ملك العربية لهذا العصر، ملكت ناصيتها ونواصينا.»2.

خاضت المقالة الجزائرية في معظم الموضوعات والاتجاهات، وتعلقت بأهم الاهتمامات التي كانت تشغل بال المثقَّفين والمفكرين الجزائريين والعرب، غير أن ذلك لا يعني سطوة كل الموضوعات على أذهان الكُتَّابِ الجزائريين، بل أن اهتمامهم كان ينصب على موضوعات بعينها أكثر من سواها، ومما شاع على أقلامهم نذكر مثالا لا حصرا: الموضوعات الأدبية، والاجتماعية، والسياسية، والدينية، والإصلاحية، في حين أن الوصف مثلا لم يحظ عندهم إلا بقليل الاهتمام، وكان لكل اتجاه من هذه الاتجاهات المذكورة آنفا رائد ومتخصص، فأبرز من تخصَّص في المقالة الأدبية مثلا: الشيخ **مُحَمَّد البشير الإبراهيمي**، وأبرز من تفنَّن في المقالة السياسية هو **أحمد توفيق المدني**، وأشهر من كتب المقالة الدينية هو الشيخ **أحمد سحنون**، وأحسن من عَبَّرَ بالمقالة الاجتماعية هو الشيخ **باعزيز بن عمر**.

مثلما خاضت المقالة الجزائرية في معظم الاتجاهات، خاض الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي في مختلف مواضيع هذه الأخيرة واتجاهاتها، فقد تراوحت كتاباته المقالية ما بين الأدب، والاجتماع، والسياسة، والدين، والإصلاح، فأبان بذلك عن عمق معرفي يمثِّل مزيجا من الحكمة، والفصاحة، والعقلانية، والتصوف، والفلسفة، مع اقتران كل ذلك بفكر سياسي جزائري خالص هو نتاج الكلمة والقلم جراء مقارعة الاستعمار والرد عليه.

تقويم الإنسان في مقالات الشيخ:

من الإجحاف بما كان أن نقصر النظر في الخطاب الإبراهيمي على الجانب المعرفي الفقهي، الصوفي، البياني، البلاغي، ونصرفه عن الجانب الفلسفي، العقلي، العلمي، ذلك أن خطاب الشيخ يأبى إلا أن يأخذ حظه ونصيبه من هذه الجوانب المعاصرة برمتها، وفي براعة منقطعة النظير لا تقل عما ألفيناه عنده في مجال الذوق الأدبي الرفيع، والبيان البلاغي البديع، والتفقه الديني، والدهاء السياسي، والإصلاح الاجتماعي... وغيرها من الميادين التي اشتغل عليها فكره كثيرا.

إن المتابع للخطاب الإبراهيمي يجده معاصرا تماما لاهتمامات العقل البشري آنذاك وحاجاتِه، فقد اتسم بالحكمة الفلسفية من حيث المضمون، وبالنزعة العقلية من حيث البيان والبرهان، فكان خطابا متوازن الكفة، يجمع في

ثناياه بين الفلسفة والدين دون تبذير أو تقتير. وعلى حد علمنا، نرى أن ذلك كان ضروريا من حيث المنهج، إذ هي حاجة ملحة أملتها الظروف السياسية، والفكرية، والثقافية المحيطة، فكان لا بد –إذا أُرِيدَ للخطاب أن يصيب هدفه– من ركوب المنهج الفلسفي والعقلي لإلباس القضية الكبرى، قوة الحجة ومنطق الدليل.

ما أبلغ الإبراهيمي وهو يوظف الأساليب العلمية والعقلية والنَّقليَّة في إصدار حكمه على قضية ما، وما أَمْيَزَهُ وهو يجمع العديد من المناهج ويستعين بها في خطاباته، كالتاريخي التحليلي، والفلسفي النقدي، والرياضي البرهاني، وهذا المزيج المنهجي برمته يترجم مدى أهمية الإحاطة المعرفية التي طبعت ثقافة الإمام البشير، وحسن تدبيره في توظيفها وتوزيعها بين دفتي كتاباته.

إن المعادلات العقلية في مقالات الإبراهيمي لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، ففي قضية فصل الحكومة عن الدين، وهي المقدمة الصغرى لتحقيق المآرب الكبرى (فصل الجزائر عن أقدس مقدساتها)، يتناول الخطاب أسلوب التسويف والمماطلة الذي تنتهجه الحكومة الفرنسية مع الجزائريين ليطول الأمد فتنسى العقول، وتقسو القلوب، وتتشعب المسالك وتكثر على المطالبين بحقوقهم، يقول الشيخ في إحدى مقالته: «أما الأمد فقد طال مئة وعشرين سنة، فتناسى أولنا ولم ينس أخيرنا... وأما تشعب السبل فقد أعددنا له –من أول يوم– دليلا لا يَضِلُّ وهو الحق، وجانبا لا يَزِلُّ وهو الصبر، وسيفا لا يَكِلُّ وهو الحجة، ونصيرا لا يَذِلُّ وهو العقل، وميزانا لا يَخْتَلُّ وهو الرأي، فلا تتشعب علينا السبل إلا رميناها بهذه الأدوات مجموعة فتنزوي وتتجمع كقضبان الحديد في محطة القطار، مآلها بحكم الهندسة إلى خطين متوازيين»3.

بهذا البرهان المنطقي أبطل الإبراهيمي المعادلة الفاسدة التي أقام عليها الاستعمار مقدماته، وهي "البطلان بالتقادم" كما يقول رجال القانون، وأقام عليها حجة علمية هندسية وهي مآل الكثرة إلى خطين متوازيين، ثم إلى محطة واحدة هي محطة الوصول، وهذا برهان عقلي يقوم على الدليل العلمي.

وهناك نموذج آخر للمعادلة العقلية، يوردها مُحَمَّد البشير في علاقة الحكومة الفرنسية بأتباعها من رجال الدين وعلمائه المزعومين، وهي أن هذه الحكومة تُبقي على السُّحنة، وتفرغ الإنسان من الشحنة، يقول الشيخ: «وواعجبا لما تصنع هذه الحكومة ببعض الرجال مِنَّا، تعمد إلى الواحد منهم فتبقيه على سُحنته، ولكنها تفرغه من شُحنته.»4. ويقول في موضع آخر:«وما زالت بهم تروِّضهم على المهانة وتَسُوسُهُم بالرغبة والرهبة، حتى نسوا الله ونسوا أنفسَهم... وأصبحوا في العهد الأخير كالأسلاك الكهربائية المفرغة من الشحنة، ليس فيها سلب ولا إيجاب.»5.

إن هذا الأسلوب المنْتَهَجَ من قبل العلامة قد أسهم في رفع أي شأن من شئون مجتمعه وشعبه –يظهر على أنه غير ذات أهمية– إلى درجة التحليل المعرفي، ليجعل منه شأنا أو قضية عقلية كبرى، وما أبرع الشيخ وهو يضفي على كل قضية طابع الاستنباط العقلي، ليجذب الأنظار، فيقابل بين فكرة صحيحة وأخرى خاطئة، وبين خاطرة أصيلة وأخرى دخيلة، ليبني النتيجة على المقدمات، وتلك مهمة الفيلسوف القدير.

إن هذا المنهج المقارن الذي يصادفه القارئ في أدب الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، لَيُعَدُّ نسجا فريدا في الخطاب العربي المعاصر، حيث يستخدم فن التوليد اللغوي والتصوير المعنوي في رسم حدود القضايا، فيضفي بذلك على هذه القضية أو تلك طابع الأهمية المفقود، وعامل الخطورة المقصود، ويجعل من القارئ أو السامع المَوَجَّهِ إليه الخطاب، أسير العقل، مشدود البصيرة.

إذا أردنا اختصار كتابات الإبراهيمي المقالية في كلمات، فإننا سنختصرها في: الجزائر، والعروبة، والإسلام، فعلى الرغم من أن أوطان الإسلام كلها وطن المسلم من منظور الشيخ، غير أنه لا ينكر الفطرة ولا يعاكسها في حنينها إلى مسقط رأسها وشوقها إليه، لذلك كانت الجزائر شُغْلَ الخواطر، ونجوى السرائر، ولعل مقاله (تحية غائب كالآيب) من أحسن ما يُستدل به على حب الوطن، ومن أبلغ ما كتب في هذا الشأن، وهي رسالة يدعو فيها الشيخ كل غريب إلى التعلق بحب الوطن، يقول مُحَمَّد البشير في ذلك: «أيها الوطن الحبيب: أما الشوق إليك فَحَدِّثْ عنه ولا حرج، وأما فراقك فشدة يعقبها الفرج، وأما الحديث عليك فأزهار تَضَوَّعَ منها الأرج، وأما ما رفعتُ من ذكرك فسل من دب ودرج، وأما الانصراف عنك فإرجاف بَالِغَيَّ لم يتجاوز صاحبَه اللِّوَى والمنعرج...»6.

وعندما يتوجه الشيخ بالكلام إلى طلاب العلم من أبناء الجزائر في تونس والمغرب الأقصى، فإنه يرسم لهم صورة عقلية دامغة الحجة في ضرورة التفريق بين المعرفة المرغوبة والسياسة المشبوهة، ليربط الشباب في النهاية بالوطنية في أرقى صورها وأنبل مبادئها، يقول الإبراهيمي: «إن الوطنية لعقيلة كرام، لا يُسَاقُ في مهرها بهرج الكلام، وكريمة بيت، لا تُنَالُ بِلَوْ ولا بِلَيْت، وإن العلم كبير أناس لا يُصَاحَبُ إلا بضبط الأنفاس»7.

تماشيا وما تخدمه هذه الورقة البحثية من أهداف، وما تصبو إليه من مرامي وغايات، آثرنا أن نسلط الضوء على مقالات الشيخ التي شَكَّلَ الإنسان الجزائري مادتها الأولية، مع محاولة تتبع هذه المادة تاريخيا للتدليل على أن كتابات الشيخ ذات منحى واحد، لا تقبل الحياد عنه ولا الالتفاف عليه، فالثبات على المبدأ حقيقة مقرَّرة، وسنة متَّبعة عند الشيخ وأقرانه من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومن حذا حذوهم واقتدى بسنتهم.

كثيرا ما كان الشيخ في مقالاته يُذَكِّرُ أبناء وطنه بعلاقة الجزائر بالعروبة والإسلام، ذلك أن السلطات الفرنسية عملت جاهدة على تغليط الرأي العام العالمي، وإيهامه بأن الجزائر قطعة من فرنسا، وأن شعبها فرنسي الأصل والمنبت، يقول الشيخ في رده على هذه الدعاية المغرضة: «الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، وهي ثلة من المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان ذلك الدين... تفاخر بالإسلام لأنه في حقيقته الأصلية مجمع للفضائل الإنسانية، وتفاخر باللسان العربي لأنه ترجمان هذا الدين وكتابه المبين، وهو بعد ذلك مستودع الحكم ولسان الشعور والخيال.»8.

لما رأى الشيخ من مفكري الغرب وعلمائه تماديا في رد المدنية لأقوام آخرين غير العرب، انتفض غيرة ودفاعا عن العربية وفضلها على العلم والمدنية، وأثرها في الأمم غير العربية، فقال موجها كلامه لهؤلاء المجحفين في حقها: «لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند، ولَأَلْزَمَتْهُم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته.»9.

وحتى لا ينسى الجزائريون من الشباب أصلهم وفصلهم، يحذرهم الشيخ من التماهي في المدنية الغربية التي حملتها فرنسا إليهم ببريقها الزائف والكاذب، ويوصيهم خيرا بالبداوة التي ينحدرون منها، يقول الشيخ في مقاله الذي اختار له عنوان (الشاب الجزائري كما تُمَثِّلُهُ لي الخواطر): «... أَتَمَثَّلُهُ بَرًّا بالبداوة التي أخرجت من أجداده أبطالا، مزوارا

عن الحضارة التي "رمته بقشورها"، فأرخت أعصابَه، وأنَّثت شمائلَه، وخنَّثت طبائعَه، وقيَّدته بخيوط الوهم، ومجَّت في نبعه الطاهر السموم، وأذهبت منه ما يُذهب القفص من الأسد من بأس وصولة...»10.

وعن ضرورة ربط أواصر علاقة الجزائريين بإخوانهم العرب عامة والمغاربة خاصة، يقول الشيخ نيابة عن كل الجزائريين في مقاله المعنون بـ:(عيد العرش المحمدي العلوي) مهنئا: «أيها الإخوان في المغرب الأقصى، نحيّيكم على بُعْدِ الدار، وحيلولة الجدار، ومعاكسة الأقدار، تحية وُدٍّ، لا تُقَابَلُ بالرد، ونهنئكم بهذا العيد السعيد، تهنئة الغريق لِمن بالساحل، والمبْعَدِ لِمن طُوِيَتْ له المراحل، وندعو للجالس على العرش بالتأييد من ذي العرش، ونتمنى لكم –كما تتمنون لنا– سعادةً يُطَرِّزُ حواشيها النعيم، وسيادةً تدفع إلى حرم العز من ثنية التنعيم.»11.

ومن المغرب الأقصى ينتقل بنا الشيخ في مقاله المعنون بـ:(ليبيا، ماذا يراد بها؟) إلى الطريقة التي يؤازر بها الجزائريون إخوانهم الليبيين في جهادهم ضد محتلِّهم، يقول الشيخ موجها كلامه للأشقاء الليبيين: «إن لكم إخوانا يصل بينكم وبينهم الماء والصحراء، ويشرفون عليكم من مخارم هذه السلاسل الشامخة من الأطلس الكبير، وإنهم يشاركونكم في الشدائد والمحن، كما شاركوكم في الألسنة والسِّحَن، وإنهم يقاسمونكم مرارة الامتحان الذي أنتم فيه، فانظروا في أي موضع وضعتكم الأقدار، إنكم في موضع قدوة لشعوب ترجو ما ترجون، وتعمل لما تعملون...»12.

ينقلنا الشيخ في مقالاته من المغرب العربي إلى مشرقه من خلال المواضيع الكثيرة التي عالجها، ومن خلال الأحداث الجسيمة التي مر بها هذا الركن العزيز على قلب كل عربي ومسلم، والشرق من منظور الشيخ ترياق الندوب وسلوى الخطوب، يقول في مقاله (من نفحات الشرق): «دَاوِ الكَلُومَ يا شرقُ، فما زلنا كلما استشفينا بك نجد الراحة والعافية، ونظفرُ بالأدوية الشافية، وما زلنا كلما استنشقنا ريحا استنشينا رَندك وعَرعارك، وكلما استورينا زَندا استمجدنا مَرَخَكَ وعِفَارَكَ، وما زالت أفئدتنا تهوي إليك فتصافِحُها حرارةُ الإيمان، وبردُ اليقين، وروحُ الأمان، وما زلتَ تتحفنا مع كل بازغة منك بالنور اللائح، والشعاع الهادي، وما زال يتبلج علينا من سَنَاك في كل داجية فجرُ، وتسري إلينا من صَبَاكَ في كل غماء نفحاتٌ مُنْعِشَةٌ.»13.

ولأن فلسطين يجب أن تسكن في قلب كل جزائري ووجدانه، هاهو الشيخ يستحضرها ويستحضر معاناة إخوانه من الفلسطينيين يوم عيد الأضحى، يقول الشيخ في هذا الشأن: «النفوس حزينة، واليوم يوم الزينة، فماذا نصنع؟ إخواننا مشرَّدون، فهل نحن من الرحمة والعطف مجرَّدون؟ تتقاضانا العادة أن نفرح في العيد ونبتهج، وأن نتبادل التهاني، وأن نطرح الهموم، وأن نتهادى البشائر. وتتقاضانا فلسطين أن نحزن لمحنتها ونغتمَّ، ونُعْنَى بقضيتها ونهتمَّ. ويتقاضانا إخواننا المشرَّدون في الفيافي، أبدانهم للسوافي، وأشلاؤهم للعوافي، أن لا ننعم حتى ينعموا، وأن لا نَطْعَمَ حتى يَطْعَمُوا...»14، فأية علاقة هذه، يرسمها الإبراهيمي للجزائريين وهم يعيشون محنة الاحتلال الفرنسي ومآسيه؟!. إنها علاقة العربي بالعربي، والمسلم بالمسلم، بل والإنسان بأخيه الإنسان.

كنا قد ذكرنا في موضع متقدم من هذه الورقة البحثية أن الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي لم يترك شاردة أو واردة، صغيرة أو كبيرة، تخص أبناء مجتمعه وعلاقاتهم بينهم أو مع غيرهم إلا وخصها بكلمات أو فقرات ومقالات، وسنحاول في هذا الموضع أن نستعرض نتفا مقالية تحيل على ما رسمه الشيخ واستنه من سبل وسنن للإنسان الجزائري، بناء لشخصيته، وتنظيما لروابطه الثقافية والاجتماعية والدينية مع غيره.

في تقويمه لمن يمتهنون أو يفكرون في امتهان حرفة الكتابة، يتوجه الشيخ إلى هذه الشريحة المثقفة بمجموعة من النصائح قصد تصويب نظرتهم وتسوية عودهم، يقول في مقالته التي اختار لها عنوان (إلى الكُتَّابِ): «ونصيحتنا إلى هؤلاء وإلى ناشئتنا الكاتبة أن ينظروا لأنفسهم وأن يعتمدوا عليها، وأن يدمنوا القراءة لآثار فحول الكتَّاب من قدماء ومحدثين... وأن يكونوا عصاميين في الأدب والكتابة، فإن المعاهد التي تقلَّبوا فيها للتحصيل لا تُخرج أديبا ولا كاتبا، ما دام حظ البيان فيها منزورا، وعلم اللغة والإنشاء فيها مهجورا، والأدب العربي فيها لا يُدَرَّسُ قصدا، وإنما تُعرض نتفه عرضا.»15.

لن تؤتي النصائح الآنفة الذكر للكتَّاب أو المولعين بالكتابة أُكلها ما لم تُسْنَدُ بحريتهم الفكرية، يقول الشيخ في مقالته التي اختار لها عنوان (حرية الأديب وحمايتها): «وإذا كنا نريد للأديب الرخاء ورحابة العيش، حتى يَفْرَغَ لفنه، فإن الحرية الفكرية للأديب هي مداد قلمه الذي بدونه لا يُنتج ولا يُثمر... لا بد من حماية الأديب من كل ما يزيف فنه، ويدفعه إلى التخفي وراء الرمز والغموض...»16.

في علاقة المثقف بالأمة، لهج لسان الإبراهيمي بكلمات اختار لها عنوان (واجب المثقفين نحو الأمة)، حَدَّدَ فيها علاقة المثقف بالأمة والمسئولية الكبيرة التي تقع على عاتقه تجاه أمته، وبعد تعديد مجموعة من الواجبات التي يراها الشيخ من الدرجة الثانية، يَخْلُصُ إلى الواجب الأساس في قوله: «...أما الواجب في حد ذاته فهو في الجملة إيصالُ النفع والخير إلى الأمة ورفعُ الأمية والجهل عنها، وحثُّها على العمل وتنفيرُها من البطالة والكسل، وتصحيحُ فهمها للحياة وتنظيفُ أفكارها وعقولها من التخريف، وتنظيمُ التعاون بين أفرادها وتمتينُ الصلة والثقة بين العامة والخاصة منها، وتعليمُهم معاني الخير والرحمة والإحسان لجميع الخَلْقِ.»17.

عاشت البلاد ردحا طويلا من الزمن والمستعمر الغاشم يُحْكِمُ قبضته عليها وعلى أفراد شعبها، فكان لزاما على أبناء الوطن الجزائري أن يضعوا اليد في اليد، وأن يقفوا وقفة الرجل الواحد أمام هذه الظروف العصيبة، وانطلاقا من هذا جاءت دعوة البشير الإبراهيمي إلى التكاتف والتكافل، وهذا ما يظهر جليا في مقاله (التعاون الاجتماعي) الذي يقول فيه: «ومن ثمرات الاجتماع ما تقرؤونه في التاريخ من تَغَلُّبِ جماعات قليلة العدد قليلة المال على جماعات هي أكثر منها عددا وأوفر مالا –نعم إن فوائد الاجتماع لا تحتاج إلى بيان– فالاجتماع يُحَدِّثُ عن نفسه باللسان الفصيح.»18.

لقد لفتت انتباه الشيخ بعض القضايا الاجتماعية التي وسعت الهوة بين العائلات الجزائرية أيام احتلال الفرنسيين نذكر منها: قضية الزواج، هذه الأخيرة وبدل أن تكون رباطا دينيا مقدسا ورابطا اجتماعيا وثيقا، أضحت وبالا وجحيما، لاجتماع بعض المعوقات ووقوفها في وجه الشباب الجزائري، كالحالة الاجتماعية المتدهورة التي فرضتها العهدة الاستعمارية، وتعنُّت بعض الأولياء في فرض الشروط التعجيزية، وحتى تزويج الأبناء قبل سن البلوغ، وهو تفريط شائن معيب.

يقول الشيخ في مقاله الموسوم بـ: (الشبان والزواج) مقترحا الحل الأمثل للقضية: «ولو أننا وقفنا عند حدود الله، ويَسَّرْنَا ما عسَّرته العوائد من أمور الزواج، لما وقعنا في هذه المشكلة، ولكننا عسرنا اليسير، وحَكَّمْنَا العوائد، والعجائز القواعد، في مسألة خطيرة كهذه، فأصبح الزواج الذي جعله الله سكنا وألفة ورحمة –سبيلا للقلق والبلاء والشقاء، وأصبح اللقاء الذي

جعله الله عمارة بيت وبناء أسرة- خرابا لبيتين بما فرضته العوائد من مغالاة في المهور، وتفنن في النفقات والمغارم... أيها الآباء! يسِّروا ولا تعسِّروا! وقدِّروا لهذه الحالة عواقبَها وارجعوا إلى سماحة الدين ويُسْرِه، وإلى بساطة الفطرة ولِينِهَا.»19.

لقد أحل الله عز وجل الطلاق بَيْدَ أنه جعله أبغض الحلال، لما يترتب عنه من مضار بسبب النظرة القاصرة والضيقة لمن يكونون أطرافا فيه، وقد خص الشيخ هذه القضية الاجتماعية المهمة والخطيرة بمقالة لا تخلو من أهمية، عرض فيها ما ينجر عنها من ويلات وتبعات، بسبب الفهم الخاطئ لمعناها وحقيقتها، ولأن الطلاق اليوم أصبح ساري المفعول لأتفه الأسباب والمسببات، دون التفات إلى ما يُخَلِّفُهُ من ألم وشقاء وبؤس، ولأن البؤس كل البؤس يأتي من الزوجين في هذه القضية، قال الشيخ في هذا الموضوع: «أيها المسلمون: إنه لا أشقى من ابن المطلقة، وإن أباه يشقيه أولا، ويشقى به أخيرا، فإذا رُبِّيَ في حضن أمه المطلقة شَقِيَ بِبُعْدِهِ عن أبيه، وشَقِيَ أبوه بما تغرسه أمه في نفسه من بغض له وحقد عليه. إن الأمة لا تنعم بأطفالها صغارا، ولا تنتفع بهم كبارا، إلا إذا نشئوا متقلِّبين في أحضان الآباء والأمهات، متلقين لدروس العطف والحنان من قلبين متعاطفين، لا من قلب واحد. ليت شعري أيدري المتساهلون في الطلاق ماذا جنوا على أنفسهم وعلى أبنائهم وعلى أمتهم؟.»20.

ليس بالغريب أن نجد البعد الإنساني متجذرا في كثير من مقالات الشيخ، هذا البعد الذي يرسم حدود العلاقات الإنسانية قاطبة، تيسيرا لتعامل الإنسان مع أخيه الإنسان، تعالوا معا نتأمل كلمات الشيخ في مقاله (الإنسان أخو الإنسان): «مؤدى هذه الجملة الصريح عَقْدُ الأخوة بين أفراد البشر بموجب الإنسانية التي هي حقيقة سارية في كل فرد. ومقتضى هذه الأخوة أن يشارك الإنسانُ الإنسانَ في جميع لوازم الحياة سرورا وحزنا، لذة وألما، مشاركة معقولة تنتهي إلى حدود لا تتعداها، بحيث يُعَلِّمُ العالمُ الجاهلَ، ويرشد النبيهُ الغافلَ، ويواسي الغنيُّ الفقيرَ، ويقع التعاون المتبادَلُ بين الناس في كل جليل وحقير.»21.

إن هذا النهج الإنساني الذي اختطه الإبراهيمي لبني البشر لم ينتهجه هؤلاء، فتحوَّل اليسر إلى عسر، والخير إلى شر، والسلم إلى حرب، وهذا ما دفع بالشيخ إلى كتابة مقالة أخرى عَدَّدَ فيها آلام الإنسانية ونداءات استغاثاتها المدوية عَلَّهَا تجد آذانا صاغية، يقول الشيخ في مقالته (الإنسانية: آلامها واستغاثتها): «الإنسانية تلك الأم الرؤوم التي لا تحابي واحدا من أبنائها دون آخر، ولا تميز بين بارٍ منهم وفاجر، ولا تفرق بين مؤمن منهم وكافر، تلك الأم المعَذَّبَةُ بالويلات والمحن، من ويلات الحروب التي أتلفت الملايين إلى ويلات الأمراض والطواعين، إلى ويلات الزلازل والبراكين... ألا فليرحم

الإنسانية من في قلبه رحمة، ألا وإن الإنسانية تستغيث فهل من مغيث، وتستنجد فهل من منجد؟.»22.

إن هذه النفوس الإنسانية المريضة لا رجاء في شفائها إلا بالعودة إلى كتاب الله، لأن فيه من الأحكام والقوانين الربانية ما يُطَهِّرُ النفوس ويُطَمْئِنُ الأفئدة ويريحها، ولهذا يوصي الشيخ أبناء الأمة بالعودة إلى القرآن الكريم، يقول في مقالته (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوَّلها): «القرآن هو الذي أصلح النفوس التي انحرفت عن صراط الفطرة، وحَرَّرَ العقول من ربقة التقاليد السخيفة وفَتَحَ أمامها ميادين التأمل والتعقل، ثم زَكَّى النفوس بالعلم والأعمال الصالحة وزيَّنها بالفضائل والآداب، والقرآن هو الذي أصلح بالتوحيد ما أفسدته الوثنية، وداوى بالوِحدة ما جرحته الفرقة

واجترحته العصبية، وسوَّى بين الناس في العدل والإحسان، فلا فضل لعربي –إلا بالتقوى– على عجمي، ولا لمِلكٍ على سوقة إلا في المعروف، ولا لطبقة من الناس فضلٌ مقرَّرٌ على طبقة أخرى.»23.

إن جهود الإصلاح التي احتملها الشيخ سنينا طويلة لم تكن مخصوصة بالإنسان الجزائري وحده، ولا بالإنسان العربي أو المسلم فقط، بل كانت دعوة عامة لتشمل العالم الإنساني برمته، وهذا ما يظهر جليا في مقالته الحاملة لعنوان (أصلحُ نظام لتسيير العالم الإنساني اليوم هو الإسلام) التي جاء فيها: «نقول ونعيد بأن أصلح نظام لقيادة العالم الإنساني هو الإسلام... ونأتي بالحجة على لون آخر، وهو أن الإسلام عقائد وعبادات وأحكام وآداب، وكل هذه الأجزاء رامية إلى غرض واحد، وهو إصلاح نفس الفرد الذي هو أَصْلٌ لإصلاح النفسية الاجتماعية، فعقائد الإسلام مبنية على التوحيد، والتوحيد أقرب لإدراك العقل الإنساني من التعدد، وأدعى لاطمئنانه وارتكازه وتسليمه، والعقل إذا اطمأن من هذه الجهة انصرف إلى أداء وظيفته مجموعا غير مشتت.»24.

ونافلة القول، إن مقالات الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي في عمومها تصب في خانة تنظيم الحياة الإنسانية وعلاقاتها المتشعبة مع غيرها، في تربيتها، وفي أخلاقها، وفي دينها، وإن حادت عن هذا النهج المرسوم ارتدت إلى مجابهة المستعمر وسياساته الرامية إلى إفساد الخُلُقِ قصد السيطرة والتمكن، وهي سياسات تحمل بذور فنائها في طياتها، ولهذا ألفينا الشيخ في مقاله (الاستعمار والشيطان) يبشر بقرب اندثار طاغية الزمان وزواله، يقول الشيخ في هذا الشأن: «أصبح الاستعمار كالشيطان ملعونا بكل لسان، ممجوجا اسمه في كل سمع، ممقوتا في كل نفس، مُسْتَنْكَرًا من كل عقل، ومن ذا يرضى عن الطاعون الذي يُبقي من السبعين سبعة، أو على السل الذي يختزل الآجال من التسعين إلى تسعة؟. ولكن الذي يُخْزِنُ الاستعمارَ أنه لم يضمن البقاء كالشيطان فيكون من المُنْظَرِينَ إلى يوم الوقت المعلوم، فقد أحاطت به خطيئاته، وريعت بالصيحة الكبرى حُجُرَاتُهُ، وأمسى في حالة احتضار وسيفارق هذه الدنيا غير مأسوف عليه، فلا تبكي عليه سماء ولا أرض، وسيستريح العالم الإنساني من شر كان مصدر الشرور، وكان مثار النزاع وموروث الحروب.»25، وقد عاش الشيخ رحمة الله عليه هذه اللحظة –ولو مؤقتا– بخروج المستدمر الفرنسي من أرض الجزائر مذموما مدحورا، وقَبْلَهَا من تونس والمغرب، فهل سنعيشها نحن –نهائيا– بخروجه من كل الديار التي استباح مالها وأهلها على حد تعبير الشيخ؟.

الإحالات

1– استندنا في كتابة هذه النبذة على الكتاب الذي أصدره المجلس الأعلى للغة العربية تحت عنوان: مقتطفات من آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي، بمناسبة اليوم الدراسي (الإمام البشير الإبراهيمي منور الأذهان وفارس البيان)، المنعقد بالجزائر في 01 جوان 2009م.

2– مُحَمَّد البشير الإبراهيمي. آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي. جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي. دار الغرب الإسلامي. بيروت. ج 2. 1997م. ص 08.

*** الفلتة: وصف أطلقه الشيخ العربي التبسي على الإبراهيمي اعترافا منه بموهبته ومقدرته الفكرية والأدبية.**

3– نُشر المقال في العدد 137 من البصائر بتاريخ 15 جانفي 1951م.

4– نُشر المقال في العدد 139 من البصائر بتاريخ 29 جانفي 1951م.

5– نُشر المقال في العدد 156 من البصائر بتاريخ 21 ماي 1951م.

6– نُشر المقال في العدد 229 من البصائر بتاريخ 15 ماي 1953م.

7– نُشرت في العدد 54 من البصائر بتاريخ 25 أكتوبر 1948م.

8– نُشر المقال في العدد الرابع من جريدة (السنة) بتاريخ 01 ماي 1933م.

9– نُشر المقال في الشهاب، الجزء الأول، المجلد الخامس عشر، فيفري 1939م، ص 11.

10– نشرت في العدد الخامس من جريدة البصائر، الصادر في: 05 سبتمبر 1947م.

11– نُشرت في العدد 58 من جريدة البصائر، الصادر في 29 نوفمبر 1948م.

12– نُشرت في العدد 113 من جريدة البصائر، الصادر في 27 مارس 1950م.

13– نُشرت في العدد 164 من جريدة البصائر، الصادر في 23 جويلية 1951م.

14– نُشرت في العدد 53 من جريدة البصائر، بتاريخ 18 أكتوبر 1948م.

15– مُحَمَّد البشير الإبراهيمي. آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي. ج 2. ص 295.

16– المصدر نفسه. ج 5. ص 212.

17– من محاضرة ألقاها الشيخ مُحَمَّد البشير الإبراهيمي في أحد نوادي مدينة تلمسان سنة 1943.

18– مُحَمَّد البشير الإبراهيمي. آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي. ج 1. ص 51.

19– المصدر نفسه. ج 3. ص 295–296.

20– م نفسه. ج 3. ص 300.

21– الشهاب. الجزء الثامن. المجلد الخامس. سبتمبر 1929م. ص 11.

22– الشهاب. الجزء الأول. المجلد السادس. فيفري 1930.

23– نُشرت المقالة لأول مرة في العدد الأول من مجلة الأخوة الإسلامية بتاريخ 21 نوفمبر 1952م، ثم نقلتها البصائر في عددها 218 بتاريخ 20 فيفري 1953م.

24– مُحَمَّد البشير الإبراهيمي. آثار الإمام مُحَمَّد البشير الإبراهيمي. ج 4. ص 68.

25– مُسَوَّدَةُ مقال وجدها ابنه أحمد في أوراق الشيخ رحمة الله عليه مؤرخة في ماي 1955م.